الأستاذ عبد المجيد بن عدة

المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية
بوزريعة

دروس التاريخ ودورها في تكوين الفرد والمجتمع

إن بناء صرح الحضارات والمدنيات يرتكز كله على قاعدة أساسية تتمثل في الوعي التاريخي الذي هو في نفس الوقت حوصلة لتجارب الأفراد والجماعات يأخذ شكل " الصيرورة التاريخية " ولا أعتقد أنه يوجد من يشكك في أن تاريخ أية أمة ما يؤثر في بناء مستقبلها، كما يؤثر في حاضرها، وواقعها المعيش.

فهو يشكل لها قوة ارتباط. كما أنه يشكل في نفس الوقت قوة و وعي ويقظة. فهو ذاكرتها التي بقدر ما تسلم لها، وتحسن التعامل معها، تقوي شخصيتها، وتبرز قدراتها، ويمتد تأثيرها.

فهي لا تشعر بذاتها، وبشخصيتها الحاضرة على الوجه الصحيح إلاّ إذا كان لها تاريخ، تماما كالفرد الذي لا يشعر بكيانه إلا من خلال ذاكرته يقول ابن خلدون في مقدمته وهو يعرض في تحليله للباطن التاريخي " باطنه نظرٌ وتحقيق، وتعليل للكائنات عميق. فهو لذلك أصل في الحكمة

عريق وجدير بأن يقيده في علومها وخليق ".[1] وفي موضع آخر من مقدمته ذكر: فأنشأت في التاريخ كتابا، وأبديت فيه لأولية الدول عملا. وأسبابا... وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا، واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا، وشرحت من أحوال التمدن والعمران، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية. وما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها ".[2]

والتاريخ بالنسبة للشعوب والأمم ليس مجرد ماض كان ثم انتهى، ولا حضارات سادت ثم بادت ولا مجرد أحداث جامدة هامدة، لا حياة تنضب فيها، بقدر ما هو صوان لمدخرات الأمة في الفكر والثقافة والعلم والتجارب وهو الذي، يمدّها بالحكمة التي تقتضيها رحلتها في الزمان تجاه تقلب الأحداث والأمة التي لا تعرف ولا تعي تاريخها هي بالضرورة أمة فاقدة للحس التاريخي لا تدري ما تفعل وما الدهر فاعل بها، تائهة في بيداء وغائبة عن إدراك كنه الحقائق ومن ثمة لا تعرف دورها ومعالم طريقها إلى المستقبل، واستشراف أبعاده.

بل نجد الدكتور قسطنطين زريق في كتابه: " نحن والتاريخ " يعدم التاريخ الذي لا روح تسري فيه ولا وعي، ومن ثم تجده يعقد في كتابه هذا تلك الصلة بين الوعي التاريخي وتجديده على صورة أخرى، من صور التحكم في التاريخ.

" وإدراك وتحليل موقفنا - نحن أبناء العربية اليوم - من ماضينا وتاريخنا وأثر هذا الموقف في حاضرنا و مستقبلنا ".[3]

وينتقد زريق بنية وعينا للماضي أو لزمانه، إذ لم يتحصل للإنسان العربي بهذا البعد الزماني اتصالا دون فكرة مسبقة، فهو اتصال ما نتوهم أنه كان، أو ما يجب أن يكون، أو كما نريده أن يكون؟!. كل ذلك يحتم ضرورة الانتقال إلى الضفة الأخرى من مجرى الوعي، ليغدو هذا الانتقال ممكنا من خلال إعادة تشكيل الوعي التاريخي العربي، وهو تشكيل يتمحور على وعي بالزمن. ووعي بالإنسان في آن. بحيث نتمكن من وعي الحاضر وتمثل الواقع بكل ما يمور في طياته من أزمات وأنجع سبيل إلى ذلك. يكون بـ " عودة أصيلة متبصرة يهديها العقل ويوضحها فهم صادق لعلاقة ماضينا بحاضرنا ومستقبلنا " ومن أجل ذلك يكثر اهتمام المؤلف بالموقف العقلاني من التاريخ.

من هذا المنظور تطلّع زريق إلى المستقبل " الذي يظل ذا صلة بالماضي: صلة إدراك وحكم و استلهام، وتسام " كما أدرك أيضا أن التفكير في الماضي من خلال " التعليل " و " الإبداع " أي " الحكم في التاريخ " هو اللحظة التي يتولد فيها المستقبل، والذي بدوره يكون أحد نتائج أزمة الحاضر ـ الواقع ـ فالاهتمام بالماضي والحاضر ناشىء عن الرغبة في معرفة ما ينطوي عليه المستقبل.[5]

وانطلاقا من كل هذا الذي ذكرناه نقول بأن. دروس التاريخ تكتسي أهمية بالغة المستوى في صنع الحضارة ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلاّ من خلال بناء الذهنية الفردية والجماعية للمجتمع والأمة. بغرس القيم التاريخية، القومية والإنسانية، السليمة الخالية من كل زيف أو مسخ وتحريف للحقيقة.

ويمكن أن نعتبر التاريخ بمثابة مدرسة لتخريج النخبة المتنورة التي تقود الأمة نحو بناء الحضارة و صنع المستقبل الزاهر وفي هذا السياق نذكر ما تضمنه كتاب الأستاذ عبد العزيز الثعالبي في كتابه " الروح التحررية في القرآن " من تقييم تاريخي لتطور المجتمع العربي الإسلامي وحضارته وثقافته وعاداته وطقوسه المختلفة. كما تتضمن هذه المقاربة المرتكزة على التاريخ استكشافا لإمكانية التطور في الحضارة والمجتمع العربي الإسلامي وظروف وشروط إقحامها في عصر الحداثة، بمنطق جدي يعتمد الحفاظ على الأصالة والتفتح على المعاصرة في كل أبعادها والتمكن من أسباب التقدم".[6]

وبناء على ذلك ينبغي الإقرار بضرورة إعطاء الأولوية للتاريخ. في البرامج المدرسية والجامعية وتسخير كل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، لإيصال الحقائق التاريخية للأجيال لكي نصل إلى تكوين مجتمع يعتز بتاريخه وأمجاده.

- العمل على تقديم دروس التاريخ بنظرة شمولية حيث ننظر إلى الأحداث التاريخية على أساس أنها سلسلة من الحلقات المتصلة ببعضها البعض لا يمكن أن نفهم حلقة من دون إلمام بالحلقات التاريخية الأخرى.

- ضرورة النظر إلى التاريخ الإسلامي على أنه مرتبط بالعقيدة من حيث الدافع و التأثر، ومن حيث المحرك و الصيغة الدائمة، مع بيان أثر العقيدة في العمل ونتائجها، التزاما بها أو انحرافا عنها. وعلى اعتبار أن هذا التاريخ كائن حي متصل الحياة لايزال مستمراً وفعالا حتى الآن رغم ما أصابه.

ـ العمل على دحض أولا كل الافتراءات والتلفيقات التي أقحمت على هذا التاريخ وكذلك التفسيرات الخاطئة والباطلة التي قامت عليه، ثم عرض الوقائع التاريخية الصحيحة بكل جوانبها مسلسلة ومكتملة واعتبار ما وراءها من المعاني التي ارتبطت بها والأسس التي قامت عليها وفهمها على ضوءها. كل ذلك على قواعد منهجية مستقلة واعية مدركة. وإمكانات علمية وافية تتصف بالخلقية والدقة والأمانة الإنصاف، كما تتصف بالتتبع والتقصي والتمحيص والمقارنة والإدراك الشامل لطبيعة هذا التاريخ ومجرياته. وفهم الحياة الإسلامية والعقيدة الإسلامية وشمولها.

أن ندرك أهمية التاريخ في حياتنا وأننا كمسلمين مرتبطين به وهو جزء من حياة الأمة ˝ الإسلامية ˝ وندرسه و ندرّسه أيضا على أساس العبرة والإقتداء. والإفادة الشاملة.[7]

لذا يصبح عرض التاريخ الإسلامي بصورة صحيحة ضرورة لا مفر منها، ليس فقط لأهميتها ولكن لانطباقها والواقع التاريخي، ولكن هذا العرض لا يمكن أن يصدر إلا من قلم عربي إسلامي.

إنه لا يصح أن نأخذ تاريخنا من كتابات جرجي زيدان (قصص غرامية). أو فليب حتي أو ساطع الحصري ولا من المبشرين المتعصبين من المستشرقين وعلى طريقة الجامعات الأمريكية وغيرها في البلاد العربية.[8]

ـ دراسة التاريخ بنظرة شمولية لا تتوقف فقط عند مقاطع معينة كالمعارك مثلا، وتاريخ السلاطين والحكام والملوك. وإنما تكون دراسة

تاريخية على اعتبار أن التاريخ يستوعب كل جوانب النشاط الإنساني وتراثه الحضاري بالمعنى الشامل. أي الحضارة متمثلة في إنتاجها الفكري والعملي، الاجتماعي الخلقي السلوكي وفي القيم التي أوجدت كل ذلك.[9]

وفي الوقت الذي كان ملوك أوربا يعدمون العلماء ويتهمونهم بالزندقة كانت حرية البحث العلمي هي السيدة و قصة روجر الثاني و الإدريسي و نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. عشرات الكتب المترجمة من العربية إلى اللاتينية حتى القرن 16 م نقل العرب المسلمين لأوربا 4 وسائل للثقافة هي:

- الأرقام الهندية - صناعة الورق - الكتب اليونانية.. المنهج العلمي أثناء الحروب الصليبية.

إبراز مشاهير العلماء المسلمين في شتى حقول المعرفة، يقول ليفي بروفنسال مثلا عن العلاّمة ابن خلدون: " أن صفات العبقرية عند صاحب المقدمة تتجلى في كونه أحرز قصب السبق في مجالات المعارف الإنسانية مما جعله في مسار يثير نزعة المعاصرين له من المؤرخين. مسار حدد فيه لنفسه مكانته الخاصة المرموقة في مصاف العظماء ذلك أن منهجيته في فن التاريخ تعكس نظرة مطلقة. أهلته لإدراك حقيقته الخفية و معناه البعيد ".[10]

- ضرورة طرح إشكالية النهضة كموضوع يشكل همّا حضاريا حاضرا في واقعنا، لا يمكن تجاوزه إلاّ بإقامة صرح نهضة قوية. ومن ثمة ينبغي التركيز عليه. بفهم شمولي متكامل لبعد النهضة في السياق التاريخي

بحيث لا يمكن اختزال مسألة النهضة في بعد واحد وأحادي ذلك لأنها اعتمادا على تاريخها وطبيعتها مسألة كلية متكاملة المعطيات. حتى وإن كانت أطروحاتها ناقصة أو غير مقنعة فالنهضة هي في الوقت ذاته مسألة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وتاريخية وحضارية.[11]

فدراسة النهضة في التاريخ العربي الإسلامي الحديث والمعاصر. مطالبة بالبحث في طبيعة المرحلة التاريخية التي أفرزتها إلى جانب القوى الاجتماعية و السياسية و الفكرية التي تعمل من زوايا مختلفة وبأدوات معينة على إنجاز أو إجهاض مشروع النهضة التي كانت في نشأتها لحظة وعي بالتخلف وإحساس بالتهميش. ومن هنا أصبح البحث في طبيعة السلطة والمجتمع والثقافة والاقتصاد والفلسفة والتاريخ. في الفضاء العربي الإسلامي الحديث والمعاصر، مفتاحا نظريا ومنهاجا ضروريا لفهم الإشكال ذلك أن " النهضة " لم تتحقق بعد في المجتمع المذكور في إطار دول الاستقلال وبرامج التنمية المختلفة.[12]

- ضرورة الوقوف في دراستنا للتاريخ على عوامل قيام الدول والحضارات وأسباب الانحطاط والإنكسارات، وذلك بالابتعاد عن العاطفة في تقويم مسار الحوادث التاريخية.

ذلك أن سقوط مدينة الجزائر في سنة 1830 م في أيدي الفرنسيين لم يكن بمحض الصدفة ولا بخلل في الخطة بقدر ما كان ناتجا عن إختلال فظيع في موازين القوى بين المستعمِر والمستعمَر. وقد أرخ ابن الشاهد لهذا الحدث الجليل بقصيدة جاء فيها:

لبست سواد الحزن بعد مسرة

وعمت بواديك الفتون بلا حصر

رفضت بياض الحق يوما فأصبحت

نواحيك تشكو بالأماني إلى الجور

ولثم درس العلم والجهل عسعس

ونادى بتعطيل العلوم على النشر[13].

ولم تكن نكبة بغداد وسقوط الخلافة الإسلامية مصيبة أهل العراق وحدهم. بل مصيبة كل العالم الإسلامي، لأنها كانت رمزا لوحدة المسلمين. وما كان ذلك ليحدث لو أحسن أولو الأمر وضع الأمور في نصابها (تدخل العسكر الترك في شؤون الدولة و جعل الخلفاء العوبة في أيديهم - قتل - حجر - سمل العيون والتجصيص والمضايقات).

وقد رثاها سعدي الشيرازي بقوله:

حبستُ بجفنيّ المدامع لا تجري

فلما طغى الماء استطال على السكر[*]

نوائب دهر ليتني مت قبلها

ولم أر عدوان السفيه على الحبر

(*) ما يسد به النهر

بكت جُدُرُ المستنصرية ندبةً

على العلماء الراسخين ذوي الحجر

محابر تبكي بعدهم بسوادها

وبعض قلوب النّاس أحلك من حبر

ويقف الشاعر عند مصب شط العرب يرقب دجلة الذي تحول ماؤه إلى دم قان من كثرة القتلى ويضيف إلى مصيبة بغداد مصيبة واسط فتتكاثر الأحزان ولا يجدي معها شيء.

وقفت بعبادان أرقب دجلة

كمثل دمٍ قان يسيل إلى البحر

وفائض دمعي في مصيبة واسط

يزيدُ على مدّه البحيرة والجزر

فجرتُ مياه العين فازددت حرقة

كما احترقت جوف الدماميل بالفجر

ولا تسألني كيف قلبك والثوى

جراحة قلبي لا تبيّن بالسبر.[14]

الهـــوامش:

1ـ علال البوزيدي نظرات في الفكر المنهجي عند ابن خلدون مجلة الأمة محرم 1404 هـ، الدوحة قطر. 76.

2ـ علال البوزيدي، نظرات في الفكر المنهجي... الأمة عدد محرم 1404 هـ ص 76.

3ـ رياض قاسم، الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق. مجلة المستقبل العربي، عدد 197، 1995، ص 94.

4ـ رياض قاسم. نفس المرجع... ص 94.

5ـ رياض قاسم. نفس المرجع. ص 94.

6ـ زهير الذوادي، الوطنية و هاجس التاريخ في فكر. عبد العزيز الثعالبي. دار سراس للنشر توتى 1995. ص 112.

7ـ د/ عبد الرحمان علي الحجي، نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي. شركة الشهاب الجزائر. ص 96ـ97.

8ـ عبد الرحمان علي الحجي، نفس المرجع، ص 97 و ما بعدها.

9ـ عبد الرحمان علي الحجي، نفس المرجع ص 104.

10ـ علال البوزيدي، نفس المرجع... ص 75.

11ـ أحمد جدي. إشكالية النهضة في الفكر العربي المعاصر مجلة المستقبل العربي عدد 150(1991). ص 51.

12ـ أحمد جدي، نفس المرجع... ص 52.

13ـ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، القسم الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1992، ص 80 .

14ـ مامون فريز جرار، سعدي الشيرازي يرثي بغداد. مجلة الأمة. عدد محرم 1404، ص 77 وما بعدها.